السير والتراجم
في الأدب العربي

للدكتور السيد مرسي أبو ذكري

أولية التاريخ :

جاء الاسلام والعرب تروى أخبار الجاهلية الاولى ، وتحكى مفاخر الآباء والأجداد ، وأحاديث مكة وزمزم ، وهجرة القبائل بعد تهدم سد مأرب ، معتمدين فى ذلك على الذاكرة واللسان دون الكتاب والقلم . وكان من الطبيعى أن تكون سيرة رسول الله وأحاديثه ومواقفه أول مواضيع التاريخ الاسلامى ، ويليه فى الأهمية تاريخ صحابته الأوفياء .

وفى عهد الخلفاء الراشدين دون القرآن مخافة ضياعه ، وسجلت قواعد النحو حرصا على سلامة اللغة . « وفى عهد معاوية بن أبى سفيان دونت الأخبار الشفوية فى رسائل صغيرة تسمى « كتبا » . روى المسعودى أن معاوية كان إذا فرغ من عمله : « يستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها ، والعجم وملوكها ، وسياستها لرعيتها ، وغير ذلك من أخبار الأمم السالفة ... ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد ، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون ، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جملة من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات »(١)

---

(١) راجع : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤ طبعة كتاب التحرير ١٩٦٧ .

ومن ثم فقد نشأ التاريخ المكتوب من الرويات المسموعة والأخبار المروية . واهتم الحفاظ بتحرى صحة الأخبار ، والاعتماد على من شاهدوا الحوادث بأنفسهم ، أو سمعوا أخبارها ممن حضرها . واستلزم ذلك الوقوف على أخبار من ينقلون عنهم ، وتحرى سيرهم وأخلاقهم ونزواتهم الفكرية . وهذا هو الأصل فى ظهور كتب الطبقات .

وترتب على ذلك الارتقاء بالمادة التاريخية فألف زياد بن أبيه المتوفى ٥٣ هـ كتاباً فى مثالب العرب ، . وجمع دغفل النسابة البكرى المتوفى ٦٠ هـ أسمار وأحاديث من مضى فى مجالس معاوية ، وسماها « التظافر والتناصر » . وإذا صح وجوده ، فإنه يبين عناية الأقدمين بالسمر ، وأثره فى تجويد العبارة وتحسينها . دون عبد الله بن عباس المتوفى ٦٨ هـ تفسيره للقرآن ، وما كان يتعرض له من معارف فى مجلسه ، دون أن يسمى ماجمعه اسما معينا .

وكتب عبيد الله بن شرية الجرهمى المتوفى ٧٠ هـ لمعاوية بعد أن استقدمه من صنعاء ، كتاب الملوك وأخبار الماضين ، تناول فيه موطنه الأصلى ـ اليمن ـ بادئا باجتماع البشر فى بابل ثم تفرقهم ، وخروج بعض بنى سام إلى اليمن ، ثم سرد تاريخ اليمنيين ، مشيراً إلى الأنبياء الذين أرسل إليهم . لكن جل اهتمامه بملوك اليمن وغزواتهم . والكتاب عبارة عن مجالس تاريخية مدونة ملونة بأطياف خيالية ، تتجاوز حد الخيال والأسطورة ، ويغلب عليها الأسلوب الحوارى ، ويشيع فيه خصائصه .

وكتب وهب بن منبه المتوفى ١١٠ هـ تاريخ وطنه — اليمن — فى رسالة سماها : « كتاب الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم(١) . والذى وصلنا عنه يسمى : « التيجان فى ملوك حمير » ضمنه تاريخ اليمن ومبدأ الخلق ، وقصص آدم وأولاده ، حتى عهد نوح وأولاده ،

---

(١) راجع : معظم الأدباء جـ١ ص٢٣٢ ياقوت الحموى .

والعرب الساميين ، وعرب الجنوب خاصة ، وتاريخ أقيالهم وملوكهم وغزواتهم ، وهجرة عمرو بن عامر من اليمن إلى شمال العرب ، كما ذكر بعض ملوك غسان . وقد نهج وهب فيه نهج عبيد الله فى إطلاق العنان للخيال فى تصوير الواقع ، وإدخال مالا أصل له من الحوادث .

بداية تدوين السيرة :

ظلت سيرة الرسول العطرة ومواقف أصحابه المشرقة تروى قرابة قرن حتى كثرت الروايات، وأصبحت عبئا تنوء به الذاكرة وعجز الرواة عن حفظها فبدأ تسجيلها فى أواخر عهد بنى أمية وأوائل عهد بنى العباس . فها هو عروة ابن الزبير المتوفى ٩٢ هـ يدون بعض الأحاديث التى طلبها عبد الملك بن مروان منه فى شكل رسائل . وتعد كتاباته أقدم المدونات عن الحوادث الخاصة فى حياة الرسول عليه السلام . ولذا قال حاجى خليفة عنه : « إنه أول من صنف فى المغازى »(١) وعنه أخذ ابن إسحاق والواقدى والطبرى .

وكتب إبان بن عثمان بن عفان المتوفى ١٠٥ هـ صحفا تتعلق بحياة الرسول ومغازيه . كما عنى آخرون بأخبار المغازى والسير مثل ، شرحبيل بن سعد المتوفى ١١٠ هـ ، وعاصم بن عمر بن قتادة المتوفى ١٢٠ هـ الذى وصفه ابن قتيبة بأنه : « صاحب السير والمغازى »(٢) ومحمد بن مسلم بن شهاب الدين الزهرى المتوفى ١٢٤ هـ . وقد اهتم بحياة الرسول الخاصة . وعبد الملك بن أبى بكر بن حزام المتوفى ١٣٥ هـ . وموسى بن عقبة المتوفى ١٤١ هـ . وسليمان بن طرخان المتوفى ١٤٣ هـ الذى تناول الفترة المكية فى حياة الرسول عليه السلام . ومعمر بن رشد المتوفى ١٥٠ هـ . ثم شيخ رجال السيرة محمد بن إسحاق المتوفى

---

(١) راجع : كشف الظنون جـ٥ ص ٦٤٦ .

(٢) راجع : المعارف ص٢٣٦

١٥١ هـ . وعوانه بن الحكم المتوفى ١٥٨ هـ ، الذى نسب ابن النديم إليه كتابين: إحداهما فى التاريخ ، والآخر فى سيرة معاوية وبنى أمية(١) .

وتتابع التأليف فى السيرة بعد هؤلاء ، وصاحبها التأليف فى السير . وكما بدأ التأليف فى السيرة على أيدى محدثين ، بدأ فى السير على أيدى إخباريين . إلا أن السيرة قصرت على موضوع لاتتجاوزه إلى غيره ، وتقبل مزيدا فيه ، على حين اتسعت السير لموضوعات عديدة ، تتجدد بمرور الزمن .

بين السير والتراجم :

تعنى كلمتا سيرة وترجمة « تاريخ الحياة » وأريد بالسيرة حياة الرسول — عليه السلام — ومغازيه . وأول من أطلقها محمد بن اسحاق المتوفى ١٥١ هـ . وظلت السيرة مقصورة على حياته الشريفة حتى تعدد تاريخ الأفراد ، وظهرت كتب الطبقات — التى تلت الرواية والتدوين — مع بداية القرن الثالث الهجرى ومن ثم تطورت الكلمة من المدلول الخاص إلى المدلول العام .

أما كلمة « ترجمة » فهى أرامية نقلت إلى العربية ، ولم تستعمل إلا فى أوائل القرن السابع الهجرى على يد ياقوت الحموى المتوفى ٦٢٦ هـ فى معجمه وأراد بها « حياة الشخص » ويرجح هذا خلو كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصبهانى المتوفى ٣٥٦ هـ منها خلال سرد حيوات الشعراء وغيرهم . والذى شاع فيه « خبر وأخبار » كما خلت المعاجم القديمة منها . أما المعاجم الحديثة فقد استعملتها فى الدلالة عل « تاريخ الحياة » .

وأمام تطور الأحداث ، وتعدد المواقف ، وتشعب الاتجاهات ، بدأ التفريق بين الكلمتين ، فأطلقت السيرة على « التاريخ المسهب للفرد » والترجمة على « التاريخ الموجز للفرد » .

وتطور مدلول السيرة فشمل السيرة الشعبية مثل : سيرة سيف ذى يزن ،

---

(١) راجع : الفهرست ص ٦١

وسيرة عنترة وغيرهما مما حفل تراثنا الشعبى به ، وتتناول الحديث عن شخص أو جماعة عرفهم التاريخ ، وتتجاوز الحقائق إلى المواقف المخترعة ، وتنسبها لشخصيات لا يعرفها التاريخ كى تؤثر فى سير الأحداث. هذا اللون من السيرة لاصلة له بالحديث الذى نحن بصدده ، لأن السيرة الشعبية تقترب من الرواية التاريخية حينا ، والملحمة حينا آخر .

أما السيرة والترجمة التى نعنيها هى التى تبحث عن الحقيقة فى حياة إنسان فذ ، وتكشف عن أطوار حياته ، وتوضح الأحداث التى واجهها ، والأثر الذى تركه ، والمواهب التى يتمتع بها كالذكاء والخيال والتفنن والإبداع . وبذا تكون السيرة أو الترجمة قصة تاريخية تعتمد على الوثائق والمدونات والأناشيد . وأبرز مافيها العمل الذى قام به صاحبها . وبقدر مايعظم العمل ويبدو تأثيره ، بقدر مايحفل التاريخ به ، فيقص خبره ، ويروى سيرته .

السير والتراجم بين الأدب والتاريخ :

لاتحتل السيرة أو الترجمة مكانتها فى مدونة التاريخ الأدبى ، مالم تكن تعبيراً عن الحقيقه التاريخية التى تجمع بين صاحب السيرة والقوى الإجتماعيه التى تجاوبت معه ، ودفعته إلى الغاية التى حققها . وعلى الرغم من أن السيرة أو الترجمة من مباحث التاريخ إلا أنها أحفل بالتخيل منه ، وكاتبها أقرب إلى الفنان من المؤرخ المجرد ، لأن التخيل يضفى على السيرة والتاريخ الحيوية التى تربطنا بالماضى الذى لم نعانيه ، والحاضر الذى نعيشه ، والمستقبل الذى نرجوه . لذا لايقدر على كتابة السيرة إلا من ملك قدرة المؤرخ وإحساس الأديب معا.

يوضح حسين فوزى مكانة السير والتراجم بين الأدب والتاريخ فيقول: « تحتل السير والتراجم فى مدونة التاريخ مكانا مرموقا ، فإذ كان التاريخ هو البحث وراء الحقيقة وتمحيصها وجلاء غموضها فى أى جانب من جوانب الحياة الانسانية ، فإن السيرة هى البحث عن الحقيقة فى حياة إنسان فذ ، والكشف عن مواهب وأسرار عبقريته من ظروف حياته التى عاشها ،

والأحداث التى واجهها فى محيطه ، والأثر الذى خلفه فى جيله . لذا كان أقرب إلى التأثير الدرامى من كل أنواع التاريخ الأخرى، وكانت أكثر إثارة للقارىء من كل كتابة تاريخية غيرها ، حيث تجيش بكافة الانفعالات والعواطف التى تثور فى أعماق البشر ، والتى تتجرد منها الواقعة التاريخية كحدث ، وإن كانت من عمل الانسان ذاته ، ذلك أننا حين نقص من خبر الواقعة التاريخية تجردها من كل مايدعو إلى الحديث والتخمين من أسرار النفس الانسانية ودوافعها، فتبقى عارية الأمن الحقيقية وحدها ، فهى التى تضفى عليها رداء التاريخ وبهجته ، وهى التى تحببها إلى النفس الانسانية حين تجدوها غريزة حب الاستطلاع إلى معرفة ماجرى ، وقد تطغى السيرة على التاريخ ، وتحتل الجانب الأكبر من مدونته . فمن فلاسفة التاريخ من يرى أن التاريخ ليس إلا سيرة عظماء الرجال »(١) .

ومن ثم فإن علاقة السير والتراجم وثيقة بالتاريخ ، يصف التاريخ الحوادث والكوائن وصفا عاما ، وتتناول السير والترجم الفرد — رجلا أو امرأة ، شاعراً أو سياسياً ، جندياً أو تاجراً — بوصفه وحده ، وتكشف عن مدى التفاعل بين فرديته وعمله ، وتأثره بالبيئة والعصر . وهذا يقتضى الدقة فى الفهم ، والرقة فى الاحساس . وبالتالى علاقة التاريخ بالأدب أوثق حتى قيل إن التاريخ والأدب توأمان . لأن كلا من التاريخ والأدب يعنى بالانسان ، ويستمد مادته من نشاطه الفكرى ، والعاطفى والعضوى ، وإن اختلف القصد بين المؤرخ والأديب . ينقل الأول الحقائق ويلتزم بالأمانة والموضوعية فى عرضها ، ويعبر الثانى عن بعض الحقائق الانسانية ، ويلونها بذاته وتجاربه الشخصية .

وعلى الرغم من أن التاريخ علم والأدب فن ، فإن المؤرخ مضطر لأن

---

(١) راجع : التاريخ والسير ص ١٤ — ١٥ العدد ١٢١ من المكتبة الثقافية ١٩٦٤ .

يكون أديبا فى عرض أحداث التاريخ لأنه حين يصور فترة يعد العدة بها ، يبحث عن مادته بين الوثائق والآثار ، واستنطق شواهد الحال ، وتسربل ببعض مواهب الفنان ، وبخاصة القدرة على الحدث ، والربط بين الأجزاء حتى يبدو الاطراد التاريخى متماسكا ، وكأنه عمل فنى خضع لتصميم مدروس ، ولا يكتب الأديب بعيداً عن التاريخ ، بل هو مؤرخ وإن اختلف نوع التاريخ الذى يسجله ، لأن الأديب مهما أوغل فى عزلته وذاتيته ، فإنه عندما يتناول بعض الشخصيات التاريخية ، يتم التلاحم بين الفن والعلم ، وبمعنى آخر بين الأدب والتاريخ .

بداية السير فى التراث العربى :

كان من الطبيعى بعد أن امتد لواء الاسلام إلى مدن وأقاليم كثيرة ، وأظل بنوره حواضر عديدة ، أن يهتم الرواة بتدوين الأخبار ، ووصف الأبطال والقادة ، وتسجيل الحوادث والوقائع والمشاهد . كما دفعت حركة جمع الأحاديث النبوية لتفسير القرآن واستنباط الأحكام الرواة إلى درس طبقات المحدثين والأحوال التى تناولوا الأحاديث فيها ، كى يقفوا على الصحيح من الزائف . وترتب على ذلك ظهور طبقات الأعيان والنابهين والمشاهير من العلماء والأدباء والمفسرين والمحدثين وغيرهم رغم تباينهم فى الأوطان والأزمان والأنساب والعلوم والفنون .

ومن ثم بدأت السير والتراجم تحتل مكانا مرموقا فى أدبنا ، وافتن العرب فيها ، واعتمدوا فى تسجيلها على تحرى الحقيقة والإسناد المتصل حتى بلغت على أيديهم - من الجودة والتفنن — مالم تبلغه على أيدى الاغريق والرومان . وأقدم كتب الطبقات التى حفل تراثنا بها . « الطبقات الكبرى » لمحمد بن سعد — المعروف بكاتب الواقدى — المتوفى ٢٣٠ هـ أودعها سيرة النبى ومغازيه ، ضمنها تراجم لنحو ثلاثة آلاف من الصحابة والتابعين والخلفاء حتى

زمنه . وخص الجزء الأول بالسيرة النبوية ، والثانى بمغازى رسول الله ﷺ ، وترجم فى الثالث للبدريين من الصحابة ، واختص الرابع بالذين لم يشهدوا بدرا وأسلموا قبل الفتح من الأنصار والمهاجرين ، وتناول فى الخامس أهل المدينة من التابعين ، والصحابة فى مكة والطائف واليمن واليمامة والبحرين ، وقصر السادس على الصحابة من الكوفيين ، وتضمن السابع الحديث عن الصحابة من البصريين ، وجعل الثامن خاصاً بالصحابة من النساء .

والكتاب ضخم نفيس جزيل الفائدة ، يضم العديد من تاريخ الجاهلية وآدابها . وروايته متسلسلة من أبى سعد حتى أواخر الرواة شرف الدين بن محمد بن عبد المؤمن الدمياطى ، وأسانيده فى كل ترجمة على حدة ، وأكثر رواياته عن محمد بن محمد الواقدى .

وعلى نمط الطبقات الكبرى ألفت كتب فى طبقات الشعراء والأدباء والنحاة واللغويين والمتكلمين والنسابين والأطباء حتى الندماء والمغنين وغيرهم مما جعل كتب التراجم موفورة فى أدبنا العربى .

وأول من ألف فى « طبقات الشعراء » محمد بن سلام المتوفى ٢٣٢ هـ ، فقد ترجم فى كتابه لأكثر من ثمانين شاعراً من فحول الجاهلية والاسلام ، وقسم كل طائفة منها إلا عشر طبقات ، وتضم كل طبقة أربعة من الشعراء الذين تجمعهم بعض الأحوال ، وأضاف إلى فحول الجاهلين أصحاب المراثى ، واعتبرهم الطبقة الحادية عشرة لفحول الجاهلين ، كما تناول الفحول من شعراء القرى التى هى المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين . واهتم ابن سلام فى كتابه بالمقابلة والمفاضلة بين شعراء كل طبقة . وصدره بالحديث عن الشعر وتاريخه ، مشيراً إلى ماأدخله الرواة من الشعر المصنوع ، فكان للكتاب قيمة أدبية كبيرة .

واهتم أبو حاتم السجستانى المتوفى ٢٥٥ هـ فى « كتاب المعمرين »

المعمرين من رجال الجاهلية وذكر بعضاً مما قالوه فى نهاية أعمارهم . وبلغ عدد من ترجم لهم مائة وعشرة ، منهم جماعة من الشعراء مثل عبيد الأبرص ، ولبيد بن ربيعة ، وعمر بن قميئه ، ونفر من الفرسان مثل : اكثم بن صيفى ، وعامر بن الظرب ، ودريد بن الصمة ، وزهير بن جناب وغيرهم .

وضم كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ تراجم المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب وفى النحو وفى كتاب الله(١) . وترجع أهمية الكتاب لاحتوائه على أخبار شعراء الجاهلية ، وصدر الإسلام وأمثلة من أشعارهم حى أيام ابن قتيبة .

وكتب يوسف بن الدابة المتوفى ٢٣٤ هـ سيرة أحمد بن طولون وابنه خمارويه ، وتناول أبو عمر ومحمد بن يوسف المصرى الكندى المتوفى ٣٥٠ هـ . فى كتابه « الولاة والقضاة فى مصر » قضاة مصر منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية أيام محمد الأخشيد ٣٣٥ هـ . وجعل لكل وال عنوانا خاصاً به ، وذكر سنة ولايته وعزله ، ورجال الأمن فى عهده والأحداث خلال ولايته ، والشعر الذى قيل فى المناسبات . وفى القسم الثانى عنى بتاريخ تولية قضاة مصر وبعض أخبارهم وأحكامهم ، ولا سيما الأحكام التى رفعت للخليفة كى يفصل فيها ، وختمه بالحديث عن ولاية بركار القاضى ٢٤٦ هـ . والكتاب يلقى أضواء على تطور الحياة العربية فى مصر .

وترجم أبو الفرج المتوفى ٣٥٦ هـ فى كتابه « الأغانى » للعديد من الشعراء والأدباء والمغنين والعشاق والخلفاء والقواد دون ترتيب معين ، والتزم خلال

---

(١) راجع : تاريخ آداب اللغة العربية ٢ / ١٧١ جورجى زيدان طبعة ١٩١٣ .

سرد أخبارهم بمنهج نقدى يقوم على بيان الخطأ والتناقض فى رواية الرواة . وترجع أهمية الكتاب لما احتواه من التراجم وأيام العرب وأخبار قبائلهم وأنسابهم ووقائعهم ، وآداب القوم فى طعامهم وشرابهم واجتماعهم وسائر أحوالهم ، ولولاه لضاع العديد من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بنى أميـــة .

وتحدث حمزة بن يوسف السهمى الجرجانى المتوفى ٤٢٧ هـ فى « تاريخ جرجان » عن فتحها والرجال الذين وفدوا عليها من الصحابة والتابعين ، وعمال بنى أمية والعباسيين ونظم المساجد فى عهدهم ، واهتم بالمشهورين بكناهم . وترجم للنساء الشهيرات . وراعى فى تراجمه ترتيب حروف المعجم ، وغلبت عليه طريقة المحدثين فى الإسناد لأنه محدث كبير . وتناول الثعالبى المتوفى ٤٢٩ هـ فى كتابه « يتيمة الدهر » أدباء القرن الرابع الهجرى فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى : مصر والمغرب والأندلس والعراق وفارس وجرجان وخراسان وما وراء النهر وغيرها .

ووصف الخطيب البغدادى المتوفى ٤٦٣هـ فى « تاريخ بغداد وأعلامها » ماحفلت به عاصمة الخلافة من حضارة ومدنية ، ثم ترجم للمشاهير ممن نبغوا فيها أو وردوا عليها من غير أهلها مع ذكر أخبارهم ومؤلفاتهم . ورتب الأعلام حسب حروف الهجاء ، وراعى الأسماء الحقيقية ، وبدأ حديثه بالنبى ﷺ تبركا وتيمناً . وتحدث ابن أبى نصر الحميدى المتوفى ٤٨٨ هـ فى كتابه « جذوة المقتبس فى ولاة الأندلس » عن ولاة ورواة وفقهاء وأدباء وشعراء الأندلس ، ورتبه حسب حروف الهجاء . ومنه نسخة خطية وحيدة بأكسفورد(١) .

---

(١) راجع : تاريخ آداب اللغة العربية ٣ / ٧٥ جورجى زيدان ، طبعة ١٩١٣ .

وترجم ابن بسام الشنتمرى المتوفى ٥٤٢ هـ فى كتابه « الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة » للعديد من أعيان ومشاهير أهل الأندلس . وقسم كتابه أربعة أقسام : ترجم فى القسم الأول منه لأربعة وثلاثين شاعراً وأديباً وسياسياً ومؤرخاً من أهل قرطبة وضواحيها . وتناول فى الثانى ستة وأربعين من رؤساء وأعيان وكتاب أهل أشبيلية . وقصر الثالث على عدد من الرؤساء وأعيان الكتاب وطوائف الشعراء المشهورين . وخص الرابع لمن آوى إلى ظل الجزيرة من الكتاب الذين ترددت أقوالهم فيها ، وألحق بهم طائفة من مشهورى أهل تلك الآفاق ممن نجم فى عصره بأفريقيا والشام والعراق .

وترجم ابن عساكر المحدث المشهور المتوفى ٥٧١ هـ فى كتابه « تاريخ دمشق وأعلامها » لمن ولدوا بدمشق أو نزلوا بها ، دون أن يترك عالماً أو راوياً أو محدثا أو مفسراً أو مؤرخاً أو سياسياً أو أديباً أو شاعراً أو صاحب قدر إلا تحدث عنه ، وذكر أخباره وآثاره فى إفاضة بالغة ، وجمع ابن بشكوال المتوفى ٥٧٨ هـ كتابه « الصلة » أخبار أئمة الأندلس وعلمائها وأعيانها حتى أيامه ، ورتبه حسب حروف الهجاء .

وسجل أسامة بن منقذ المتوفى ٥٨٤ هـ فى كتابه « الاعتبار » وقائع حياته اليومية الصغيرة والكبيرة منذ صباه حتى أواخر أيامه . وصور المعارك الصليبية التى شهدها عصره .

والكتاب — فى جملته — يكشف عن حياته النشيطة فى ميادين الحياة من فروسية وقتال ، وصيد ونضال ، وعلم وأدب ، وسفر وتاريخ ، وملك . وتسود اللغة الحزينة الكتاب ، ويشيع فيه الزهد والورع والتقوى والاعتماد على الله ، والإيمان بالقدر والاستسلام لله .

ومحتويات الكتاب تشبه المذكرات الشخصية ، أراد بها أن تكون عبرة لغيره ، ودرساً لمن يأتى بعده .

لذا جاء لونا فريدا فى الأدب العربى . ولأهمية الكتاب نقل إلى الفرنسية والألمانية والروسية والانجليزية .

وترجم ياقوت الحموى المتوفى ٦٢٦ هـ فى « معجم الأدباء » للنحويين واللغويين والنسابين والشعراء والاخباريين والمؤرخين والوراقين والكتاب وأصحاب الرسائل وأرباب الحظوظ وكل من ألف فى الأدب .

وتحدث جمال الدين القفطى المتوفى ٦٤٦هـ فى كتابه « أخبار العلماء بأخبار الحكماء » المعروف بتاريخ الحكماء عن أربعمائة وأربع عشرة ترجمة للاطباء والفلاسفة والنحويين والعلماء الطبيعيين، وأصحاب الرياضيات واللغة من العرب منذ أقدم العصور حتى زمنه . والكتاب ذو أهمية لتضمنه معارف العرب عن الأغريق وآثارهم التى خلت الكتب القديمة منها . وطبع ١٣٢٦ هـ

ولجمال الدين القفطى كتاب آخر يسمى « أنباه الرواه على أنباه النحاة » ويحمل الكتاب أكثر من اسم ، ذكر السيوطى فى « حسن المحاضرة » وبغية الوعاة بتاريخ النحاة ، أنه يسمى (إثبات الرواه على إثبات النحاة) وأيده ياقوت الحموى فى معجم الأدباء ، وعلى أية حال يقع الكتاب فى أكثر من جزء ويضم حوالى ألف ترجمة لعلماء النحو واللغة منذ عصر أبى الأسود الدؤلى المتوفى ٦٩ هـ ، حتى عصره ، والعديد من القراء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمتصوفين والأدباء والشعراء والكتاب والمؤرخين والمنجمين فى مختلف العصور :

كما تناول كل من له شأن فى مختلف الفنون فى العالم الإسلامى . وجاء مرتبا حسب حروف المعجم حتى يسهل استخدامه .

وللقفطى أيضا كتاب يسمى (أخبار المحمدين من الشعراء وأشعارهم » ترجم فيه للشعراء المسلمين بمحمد ، ورتبه حسب أسماء آبائهم وفق حروف

الهجاء . ومنه نسخة خطية بباريس (١) .

وترجم ابن أبى أصيبعة المتوفى ٦٦٨ هـ فى (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) للاطباء منذ أقدم أزمنة التاريخ حتى أيامه ، ثم أطباء السريان فى دولة بنى العباس .

ثم تحدث عن نقله العلم من اليونان والسريان والأطباء الذين ظهروا فى بلاد العجم من المسلمين وغيرهم . وتناول فى القسم الثانى منه الحديث عن أطباء العجم وبلاد المغرب ومصر والشام . وتربو تراجم الكتاب عن أربعمائة ترجمة لأشهر الأطباء والحكماء والفلاسفة وغيرهم . وجاءت التراجم مرتبة حسب البلاد ووفاة الأطباء . والكتاب ذو قيمة ادبية لا يستغنى عنه مشتغل بأداب اللغة العربية ، لتضمنه فوائد اجتماعية وأدبية واقتصادية عديدة .

وترجم شمس الدين أحمد البرمكى المعروف بأبن خلكان المتوفى ٦٨١ هـ فى كتابه المسمى (وفيات الأعيان) لحوالى خمس وستين وثمانمائة ترجمة لعلماء العالم الاسلامى من علما. ومنوك وأمراء ووزراء وشعراء ، ومن له منزلة وشهرة بين الناس . واهتم ابن خلكان فى كتابه بذكر سنة الميلاد والوفاة لصاحب الترجمة .

ويعتبر الكتاب من أوثق المصادر فى التراجم وتاريخ الآداب العربية ، وأكثرها علما وأدبا وثقافة

وتحدث الدباغ المتوفى ٦٩٦ هـ فى كتابه (معالم الايدا. بمن حل القيروان) عمن نزل بافريقيا والقيروان من الصحابة والعلماء . وعلق ابن ناجى المتوفى ٨٢٧ هـ عليه . وجاء الكتاب فى أربعة مجلدات . ويعد كتاب صلاح الدين الصفدى المتوفى ٧٦٤ هـ المسمى (الوافى فى الوفيات) أكبر معجم فى تراجم

---

(١) راجع : تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٧٠ جورجى زيدان ط ١٩١٣

الاعيان ، لم يترك أحدا من مشاهير الصحابة والتابعين والملوك والأمراء والقضاة والقراء والمحدثين والفقهـــاء والمشايخ والعلماء والأولياء والنحاة والأدباء والشعراء والأطباء والحكماء وأصحاب النحل والبدع وأعيان كل فن ممن اشتهر أو تفنن إلا ذكره .

واهتم لسان الدين بن الخطيب المتوفى ٧٧٦ هـ بمن حل بغرناطة فى كتابه (الإحاطة فى أخبار غرناطة) وتناول فيه الملوك والأمراء والأعيان والكبراء والقضاة والمقرئين والعلماء والكتاب والشعراء ممن ولدوا بغرناطة أو وردوا عليها .

وختم الكتاب بالحديث عن الصوفية الفقراء . واهتم ابن الخطيب فيه بحال المترجم له وشيوخه وتلاميذه وتصانيفه . يشيد محمد عبد الغنى حسن بابن الخطيب فيقول : (ابن الخطيب دقيق فى الترجمة ، يعطى الصورة الحسية للمترجم له دقيقة كالصورة الأدبية المعنوية . لا يجعل المعانى أسيرة اللفظ والتعبير والتذويق والتنميق والسجع والتكلف والقسر والعسف ، كما صنع ابن خاقان فى (قلائد العقيان) ولكن مواتاة الأفكار تأتيه فى لفظ بليغ وأسلوب جميل ، يسجع فيه أحيانا ، ويترسل فيه كثيرا)(١)

أولى التراجم الذاتية

كان للمؤرخ العربى صاحب الأسلوب المترسل ابن خلدون المتوفى ٨٠٨هـ فضيلة السبق فى التعبير عن نفسه فى كتابه (التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا .

ويعتبر ابن خلدون بكتابه « التعريف » أول من برع فى فن « الأوتو ـ بيوجرافيا » أى ترجمة المؤلف لنفسه ، وبرز بين مؤرخى العرب والمسلمين

(١) راجع : التراجم والسير ص ٧٥ ، طبعة دار المعارف ١٩٦٩

فيما كتبه عن حياته فى هذا الكتاب الذى يعد رائدا فى ميدان الترجمة الذاتية — قبل أن يعرفها الغرب — وفى مجال التعبير عن آرائه الشخصية فى الفكر والسياسة التى دعا خلالها إلى ربط الفرد بالمجتمع والواقع بالبيئة .

ضمن ابن خلدون كتابه الأعمال التى قام بها والحوادث التى مرت به منذ نشأته حتى قبيل وفاته ، ولا سيما أدق الأمور التى يكتمها غيره. وسجل فيه خطاباته لأصدقائه . وبخاصة ابن الخطيب . وخطبه وبعض إفتتاحياته لمجالس التدريس وأشعاره .

وتحدث فيه عن الدول التى تولت المغرب الأدنى والأوسط والأقصى ، ودولة بن الأحمر فى الأندلس؛ والأيوبيين والمماليك فى مصر، وأشار إلى نشأة التتار وغزوهم البلاد العربية . كما وصف بعض المجتمعات والنظم وصفا دقيقا ولا سيما الفساد الذى ساد القضاء المصرى خلال عمله قاضى قضاة المالكية فى مصر . وترجم للعديد من رجالات السياسة والأدب والعلم فى مصر وغيرها .

وتناول طريقة تبادل الهدايا بين الملوك والأمراء ومراسيم الاستقبال فى القصور . وكتابة الرسائل والنشرات والقرارات الرسمية . لذا يعتبر كتاب « التعريف » مجموعة من الوثائق الهامة فى الأدب والتاريخ والاجتماع .

ونحا نحو ابن خلدون فى التعبير عن نفسه المؤرخ محمد بن طولون المتوفى ٩٥٣ هـ . فقد ترجم لنفسه فى كتابه المسمى : « الفلك المشحون فى أحوال محمد بن طولون » ومن ثم فقد بدت ملامح الترجمة الذاتية منذ القرن التاسع عشر الهجرى — الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر الميلاديين — برزت بصورة واضحة فى أدبنا المعاصر .

عود إلى التراجم العامة :

على الرغم من سيطرة الجمود على فنون الأدب فى مختلف بلاد العروبة ، بعد ابن خلدون وشيوع المحسنات البديعية فقد ترجم ابن حجر العسقلانى المتوفى ٨٥٢ هـ فى كتابه « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » لمشاهير القرن الثامن عشر الهجرى ، فجاء معجماً وافياً لمن توفوا فى أول سنة ٧٠١ حتى ٨٠٠ هـ من العلماء والملوك والأمراء والكتاب والوزراء والأدباء والشعراء والرواة ممن عرفوا بمصر والشام . ورتب ابن حجر تراجمه حسب ظروف المعجم .

وترجم شمس الدين السخاوى المتوفى ٩٠٢ هـ فى كتابه « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » لمشاهير القرن التاسع الهجرى . وله كتاب « الكوكب المضىء » ترجم فيه لعلماء عصره ، كما ترجم لنفسه فى كتابه الأول . واهتم جلال الدين السيوطى المتوفى ٩١١ هـ فى كتابيه « حسن المحاضـــرة » و « طبقات المفسرين » بمن برز فى فن بعينه فى شتى العصور . وجاءت تراجمه مرتبة حسب حروف الهجاء .

وتناول الحسن البورينى المتوفى ١٠٢٤ هـ فى كتابه « تراجم الأعيان من أبناء الزمان » الحديث عن مائتين وخمسة من الأعيان الذين عرفهم من العلماء أو السلاطين أو الأمراء أو الصناع ، الذين رآهم أو سمع عنهم . وبدأ بتأليفه ١٠٠٩ هـ وأتمه ١٠٢٣ هـ . ورتبت التراجم حسب حروف المعجم .

وترجم المقرى التلمسانى المتوفى ١٠٤١ هـ فى كتابه « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، لأعلام الأندلس وشعرائها ، ومن رحل منها إلى المشرق أو وفد عليها منه . ويضم الكتاب مقدمة وقسمين كبيرين : تناول الأول الأندلس تاريخا وطبيعة وجغرافية وبشراً وأرضاً ومدناً ، وحياة المسلمين فيها ، وقصر الثانى على التعريف بلسان الدين بن الخطيب الوزير

المتوفى ٨٧٦ هـ ، والكتاب جليل الفائدة ، وإن غلب عليه الاستطراد وعدم الالتزام بمنهج معين .

ثم كان كتاب « الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة » لنجم الدين الغزى المتوفى ١٠٦١ هـ و « خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر » للمحبى المتوفى ١١١١ هـ ترجم فيه لحوالى ألف وثلاثمائة فاضلا وأميرا من مشاهير القرن الحادى عشر الهجرى ـ الثامن عشر الميلادى ، وطبع الكتاب بمصر ١٨٦٧ . وكتاب « سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر » لمحمد خليل المرادى المتوفى ١٢٠٦ هـ وهو معجم تاريخى لأعيان القرن الثانى عشر الهجرى . جمعه المرادى من رحلات معاصريه ، وأضاف إليه ما عرفه أو سمعه ، ورتبه حسب حروف الهجاء ، وقلد فيه المحبى صاحب خلاصة الأثر السابق .

وعلى نهج هؤلاء سار المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى المتوفى ١٢٤٠ هـ — ١٨٢٥ م فى كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » الذى يعد من أوثق المصادر فى سير أعيان وعلماء القرن الثانى عشر ، وأوائل القرن الثالث عشر الهجريين ، وطبع الكتاب فى مصر ١٨٧٩ . وعلى غرار هؤلاء ، ألف المرحوم أحمد تيمور ١٨٧١ - ١٩٣٠ كتابه « تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر الهجريين .

السير والتراجم فى الأدب الحديث

ترتب على احتكاك العقل العربى بالفكر الغربى ومذاهبه السياسيه والاجتماعية والأدبية فى القرن التاسع عشر الميلادى تغيير فى مفاهيم عديدة وقضايا كثيرة فى السياسة والاجتماع والفلسفة والأدب ، وعن المرأة والعلم والدين والترجمة والاقتباس . وظهر ضمن ما ظهر ترجمات ذاتية تهتم بظروف المولد والنشأة والتعليم ، وإن كانت لاتحمل قيمة أدبية كبرى لشيوع السرد فيها ، وتضوب

الاشراق من أسلوبها من أمثال ترجمة الشيخ محمد عياد الطنطاوى ١٨١٠ - ١٨٦١ التى كتبها عن نفسه . والترجمة التى كتبها له أغناطيوس كراتشكوفسكى ، وعربها كاثوم عودة ، والترجمة التى كتبها المستشرق « فرين » له بعد رحيله عن روسيا . والترجمة الأخيرة توضح مراحل حياته الأولى فى التعليم ، وأهم ما فيها ذكر العلوم ، والشروح والحواشى والتعليقات التى تلقاها ، وظل الأزهر يدرسها حتى أدخل الشيخ محمد عبده العلوم الحديثـــة ، وختمت الترجمة بالحديث عن بعض الأجانب المقيمين بمصر ، ويرغبون فى تعلم اللغة العربية .

ثم خطت الترجمة خطوة على يد رافع الطهطاوى ١٨٠٠ - ١٨٧٣ ، وأحمد فارس الشدياق ١٨٠٥ — ١٨٨٧ ، وعلى مبارك ١٨٢٤ — ١٨٩٣ فقد كتب كل منهم كتابا عن رحلته إلى خارج وطنه وضمنه العديد من العناصر الدالة على ذاته . وتشير إلى جوانب هامة فى سيرته .

سجل الأول فى كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » تجربته خلال رحلته إلى فرنسا إماما للبعثة المصرية التى بعث محمد على بها إذ ذاك ، وتعلمه اللغة الفرنسية فجاء خلاصة ما رأى وسمع وفهم فترة إقامته بباريس ، وقارن بين الحياتين المصرية والفرنسية ، وقدمه على هيئة مقالات وتقارير لأستاذه الشيخ حسن العطار وقسمه إلى مقدمه تضم أربع مقالات ، ومقصد يشمل ست مقالات ، ثم نهاه بخاتمة .

ووضح الثانى فى كتابه « الساق على الساق » رحلته إلى خارج وطنه وتنقلاته فى مالطة وانجلترا وفرنسا وضمنه آراءه وسخرياته ونقده الاجتماعى لبعض عادات الشرق والغرب عل السواء ، متحدثا عن حياته وأحوال نفسه فأظهر ملامح شخصيته المختلفة من مولده حتى كتابة سيرة نفسه . والكتاب ترجمة ذاتية ، لكنه لم يراع فيه الزمن خلال تسجيل المواقف والاحداث مما

يبعده عن المفهوم الفنى للترجمة ، ناهيك بالاستطراد والمترادفات والمقطوعات الشعرية ، ونقده للوقائع ، وسخريته من بعض الشخصيات مما يجعله يتسم بالنظرة المتحيزة لا الموضوعية .

وأطلعنا الثالث على مزيد من الحياة المتطورة فى كتابه « علم الدين » الذى تناول غرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر ، وأفرغ ذلك فى قالب سياحة شيخ عالم مصرى يسمى « علم الدين » مع رجل إنجليزى يرغب فى تعلم العربية. ويضم الكتاب الآراء والمعارف والمعلومات التى استقى على مبارك ثقافته الفرنسية منها، إلى جانب ثقافته العربية التى نقلها إلينا عن طريق استشهادات الشيخ «علم الدين» من القرآن والحديث والشعر والحكم والوصايا التى أوردها على مبارك على لسان الشيخ « علم الدين » وزوجته من خلال المسامرات التى تناولها الكتاب . والكتاب فى — جملته — يقوم على المقارنة بين الأحوال الشرقية والأوربية .

سير الدفاع عن النفس:

حالت نكبة الاحتلال لمصر ١٨٨١ دون نمو الشخصية الذاتية ، حتى كتب المصلح جمال الدين الأفغانى ١٨٣٨ — ١٨٩٨ ترجمته بنفسه ، ونشرتها مجلة « الجامعة » ١٩٠٦ .

وحكى الشيخ محمد عبده ١٨٤٩ — ١٩٠٥ فى ترجمته نشأته وتعلمه ومراحل حياته الأولى . وأكملها محمد رشيد رضا ١٨٦٥ — ١٩٣٥ فى كتابه « تاريخ الإمام » وتضمنت ماأخذ به من الجد والمثابرة فى طلب العلم وقدرته على استخلاص الرأى ، والوصول إلى الحجة البالغة. ويبدو خلالها الأسلوب الأدبى المرسل الذى نادى به . وكتب أحمد شوقى صفحات من سيرته الذاتية أودعها مقدمة ديوانه فى طبعته الأولى ١٨٩٨ .

وتمثل الإحساس بالذات منذ نشأة الحزب الوطنى ١٨٨٩ ، واتساع

الحركة الوطنية وتأجيج المشاعر والعواطف لدى المواطنين .

وبدت السير الذاتية — فى صور مذكرات ووصايا ورسائل وأحاديث واعترافات — تحتل مكاناً مرموقاً فى حياتنا الأدبية مع بداية الحركة الوطنية بقيادة أحمد عرابى ١٨٤١ — ١٩١١ فى عهد توفيق ١٨٧٩ — ١٨٩٢ .

وسجل قادة الحركة الوطنية مذكراتهم ، موضحين الأحداث التى خفى أمرها على الناس ، وفسروا وقائعها وحقيقتها ، وإن غلب عليها طابع الدفاع عن النفس : وتبرير ما صدر عنهم من أفعال وتصرفات .

كتب أحمد عرابى مذكراته وسماها « كشف الأسرار » . وكتب محمود فهمى المتوفى ١٨٩٩ — أحد قادة الثورة العرابية — مذكراته ، وضح فيها حياته والوقائع التى خاضها خلال الثورة من وجهة نظره الخاصة القائمة على الدفاع عن شخصه وسماها « البحر الزاخر فى تاريخ العالم وأخبار الأوائل والأواخر » .

وقد كتب الرجلان — عرابى وفهمى — مذكراتهما خلال نفيهما بجزيرة (سيلان) .

وكتب عبد الله النديم مذكراته عن الثورة العرابية ، وهى التى طبعها الدكتور محمد خلف الله ١٩٥٦ تحت عنوان (عبد الله النديم ومذكراته السياسية) وله ترجمة ذاتية تضمنها كتابه (كان ويكون) .

تتضمن (كان ويكون) لعبد الله النديم ١٨٥٤ — ١٨٩٦ سيرته الشخصية خلال فترة اختفائه بعد فشل الثورة العرابية ، ابتداء من ١٨٨٢ — ١٨٩٠ . عن أعين الحكومة والاستعمار . بدأ فى كتابتها فى مارس ١٨٨٣ ، أثناء إقامته بدار الشيخ محمد المهشرى عمدة « العتوة القبلية » التابعة للغربية ، بدأها بالحديث عن الديانات وفلسفتها ، والتاريخ وأحداثه ، واتخذ من ذكر الاديان

وسيلة للحديث عن المسألتين الشرقية والغربية . وبهما مهد للحديث عن المسألة المصرية(١) وتطلعنا سيرة النديم عن الأصدقاء والأوفياء والوطنيين الشرفاء الذين آزروه خلال محنة اختفائه من أمثال الشيخ الهمشرى عمـــدة « العتوة القبلية » وزوجته وابنه بعد وفاة العمدة ، وبعض أقرباء العمدة الذين سامروه مثل الشيخ خليل مأذون القرية ،والحاج شاذلى حلاق الصحة، والفرنسى المالك لإحدى ضياع « العتوة القبلية » ، والشيخ الأزهرى الذى أواه بقرية « منية الغرقى » التابعة لمركز سمنود ، ورسول النديم إلى الشيخ شحاته القصبى شيخ الطرق الصوفية والشاعر محمد شكرى المكى الذى أخفاه بداره فى « دسوق » ، وأحمد باشا المنشاوى الذى مد الثورة العرابية بالمال والعون والرجال .

وتضمنت الحديث عن زوجته الأولى وأولاده منها وهم عثمان وإلياس وفاطمة وعائشة وسكينة وخديجة، واستودعهم جميعا التراب ، وزوجته الثانية ابنة الشيخ محمد الهمشرى الذى أضافه أربعة أعوام وطفلته حفصـــة منها ، وزوجته الثالثة ابنة مصطفى منى من المحلة الكبرى ، وأشار إلى ضيقه من تصرفاتها العنيفة مع زوجة خادمه مما يسر أمر القبض عليه .

وكشفت سيرته عن البلاد التى تنقل فيها مثل : العتوة القبليـــه وطنطا وكفر الزيات ، والكوم الطويل والمحلة الكبرى ومنية الغرقى وسمنهود والعجورين والقرشية والدلجمون والبكانوش وشباس الشهـــداء والمندرة والجيزة . وتغيير اسمه وزيه من بلدة لأخرى ، فكان يبخر لحيته بالكبريت لتبيض حيناً ، ويخضبها بالحناء حتى تحمر حيناً آخر ، ويطيلها أو يقصرها حيناً ثالثا . ويدعى أنه مغربى مرة ، ويمنى مرة أخرى ، وحجازى ثالثة ، وادعى أكثر من عشرة أسماء : يوسف المدنى ومحمد الصيومى وعلى اليمنى ،

---

(١) راجع : كان ويكون جـ ١ ص ٢٦ .

وسى الحاج على المغربى ، والسبكى والغزى والناجى والمصرى والشرقاوى والنجدى . ويتحدث بلهجة كل اسم يدعيه فكان « كأنه نقل عن أبى زيد السروجى حيله »(١) .

وتحدث عن ظروف القبض عليه ، فذكر أن حسن الفرارجى بعد أن أحيل إلى المعاش أقام فى بلدته الجيزة ، وشاءت الأقدار أن يتعرف على النديم خلال وجوده بالجيزة ، فأخبر البوليس السرى المكلف به — ليتان مكافأة — فقبض على النديم ليلة الثانى من أكتوبر ١٨٩١ على يد محمد فريد وكيل مديرية الغربية . وبدأ التحقيق معه ، وتصادف أن كان قاسم أمين رئيس النيابة فقدر موقف النديم . ويذكر النديم أنه قال له : « أنت حر فى كلامك تقل ماشئت ، فلم يسمع منى أن أحداً من الناس آوانى على أنى عبدالله النديم المطلوب للحكومة ، بل قلت : إنى كنت أدخل البيت بدعوى أدعيها وأخرج خوفا من تفرس صاحب البيت فى وقبضه على »(٢) .

السير والتراجم السياسية :

بعد ذلك برزت سير فى شكل مذكرات ، تعبر عن مواقف المترجم له واتجاهاته ، وتتضمن آراءه فى إصلاح الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية وتنسب إلى أحمد لطفى السيد ١٨٧٢ — ١٩٦٢ ، وعبد العزيز فهمى ١٨٨٧ — ١٩٥٠ ، ومحمد حسين هيكل ١٨٨٨ - ١٩٦٦ . خالف هؤلاء الرواد بآرائهم المألوف والمسلمات . مما جعلها موضع أخذ ورد ومؤاخذة واتهام .

صور الأول فى كتابه « قصة حياتى » مراحل حياته المختلفة منذ ميلاده

---

(١) راجع : الأستاذ ص ٩٢٧ ، وسلامة النديم ص ١٤ .
(٢) راجع : الأستاذ ص ٨

بقرية « برقين » دقهلية حتى حصل على البكالوريا من الخديوية الثانوية ١٨٨٩ . وتعرفه على عبد العزيز فهمى ، والتحاقه بكلية الحقوق ، مشيرا إلى قراءاته لأصول الأنواع لداروين ، وحفظه لشعر المعلقات ، وتلمذته للمشايخ : محمد عبده ، وحسونة النواوى ، وحسن الطويل خلال دراسته بكلية الحقوق .

وضمنها بداية عمله السياسى وتأسيسه جمعية سرية لتحرير مصر من الاحتلال واستقالته من النيابة ١٩٠٥ واشتغاله بالمحاماة وتفرغه لصحيفة « الجريدة » ووضح فيها آراءه فى مجال الاجتماع والفكر والتعليم والحرب العالمية الأولى ، واعتزاله الصحافة والسياسة ، وتفرغه لترجمة مؤلفات أرسطو فى السياسة والأخلاق ودوره فى تأسيس الجامعة وقبوله فى وزارة المعارف بوزارة محمد محمود ١٩٢٨ وختمها بالحديث عن الأخلاق ودورها فى تحقيق السلام العالمى .

جاءت سيرة أحمد لطفى فى خمسة عشرة مقالة وسمى كل مقالة فصلا ، وهى تتسم بالصدق والصراحة وتميل إلى تمجيد الذات حينا والإشادة بقدراته حينا آخر وتفتقر إلى الترابط والوحدة .

وقلده الثانى فى ترجمته « هذه حياتى » ووضح فيها أطوار حياته منذ طفولته بكفر المصيلحه منوفية ، وتنقله من الكتاب إلى المدرسة الابتدائية ثم الخديوية الثانوية وانخراطه فى عقد مدرسة الحقوق وضمنها الأعمال التى قام بها فى مديرية الدقهلية وفى مجال المحاماة والقضاء ورياسته لجنة الدستور ١٩٢٢ وتوليته حزب الأحرار الدستوريين وتعيينه وزيرا للحقانية فى وزارة زيور باشا ١٩٢٥ ومعارضته الملك فؤاد فى تعديل قانون العقوبات ووقوفه فى وجه الحكم الذى أصدره مجلس الأزهر ضد الشيخ على عبدالرازق على أثر نشر كتابه « الإسلام وأصول الحكم »

وتطلعنا سير عبد العزيز فهمى على أبرز صفاته الشخصية كالصدق والتحرر والنزاهة والصراحة فيما يبدى من آراء ويعرض من مسائل ويصدر عنه من أقوال وأفعال .

وجاءت الترجمة فى عشر مقالات أطلق على كل مقالة فصلا . ثم أضاف بحثا عن « تعدد الزوجات » فبلغت أحد عشر مقالا أو أحد عشر فصلا .

وتتميز ترجمة فهمى بالترابط بين مواقفها وأحداثها مما يمنحها قوة واتساقا ومرجع ذلك إلى التدرج الزمنى الذى آثره فى عرض مراحل حياته كما جاء أسلوبها واضحا كل لفظ فيه يحمل معناه فأشبه حيثيات الحكم التى ألف كتابتها فترة طويلة .

وسجل الثالث فى « مذكراتى فى السياسة المصرية » مراحل حياته المختلفة منذ طفولته بقرية « كفر غنام » دقهلية وتثقيفه الذاتى فى مصر وفرنسا وأثر الشخصيات فيه وبخاصة أستاذه أحمد لطفى السيد وكشف فيها عن تطور الحياة السياسية والاجتماعية والنقابية والاقتصادية والتشريعية وما طرأ عليها من تقدم منذ مطلع هذا القرن . ووقف من الأحداث موقف المحلل الذى لا يتأثر فى تفسيرها بسياسة حزبه — حزب الأحرار الدستوريين إذ ذاك .

وجاءت مذكرات هيكل فى جزأين : تناول الأول الفترة من ١٩١٢ — ١٩٣٧ منذ عاد من باريس واشتغل بالمحاماه . تولى بعـــدها رياسة تحرير « السياسة » خمس عشرة سنة موضحا دوره فى الحياة السياسية فى مصر خلال تلك الفترة وصور فى الثانى الفترة من ١٩٣٧ — ١٩٥٢ التى انتقلت مصر فيها من عهد فؤاد إلى عهد فاروق ، ومن الوصايا الاستقلال المقيد بالتحفظات ومن الامتيازات للاستقلال المقيد بالمعاهدات وإلغاء الامتيازات .

وتختلف نظرة هيكل لأحداث الفترة الأولى عن نظرته لأحداث الفترة الثانية ، إذ كان فى الفترة الأولى صحفياً ، وفى الثانية وزيراً مسئولا . وشتان بين نظرة الصحفى الحرة ، ونظرة الوزير المسئول المعرض لنقد الصحافة والجماهير .

وآثر هيكل فى مذكراته أسلوب المقال السياسى الذى يقوم على التفسير والتحليل والتعليل وأطلق — كغيره — على كل مقالة فصلا . وهى — فى جملتها — تتسم بالترابط والوحدة والاتساق فى البناء والتصوير ، وتتميز بالتدرج الزمنى فى سرد الأحداث دون استطراد . لذا جاءت أكثر إحكاما فى تركيبها من أختيها « قصة حياتى » لأحمد لطفى السيد ، و « هذه حياتى » لعبد العزيز فهمى .

ومن هذا القبيل « مذكرات محمد فريد » و « مذكرات محمد على كرد » التى ألحقها بالجزء السادس من كتابه « خطط الشام » و (مذكرات الملك عبد الله) التى برز فيها مواقعة القضايا القومية . و (مذكراتى) لعبد الرحمن الرافعى — المتوفى ١٩٦٦ — التى سجل فيها مواقفه السياسة والوطنية ، ودوره فى الحزب الوطنى ، وصلته بمحمد فريد ومصطفى كامل ، موضحاً خلالها نشأته ومراحل تطوره ، مع مراعاة التدرج الزمنى والترتيب التاريخى للأحداث ، فجاءت تصويراً لجيله من خلال تصوير حياته الخاصة منذ ميلاده ١٨٨٩ حتى تاريخ نشر مذكراته ١٩٥١ .

وهكذا حفل أدبنا على امتداد عصوره ، واختلاف بيئاته ، بضروب شتى من السير والتراجم ، وجاءت فى شكل يوميات مرة ، وذكريات أخرى ، ومذكرات ثالثة ، واعترافات رابعة . وأراد أسلافنا بالسيرة والترجمة (حياة الشخص) بصورة عامة ، لكن المحدثين جعلوا إحداهما

مرادفة للأخرى . ومن ثم قيل : السيرة أو الترجمة العامة أو الترجمة الذاتية .

* * *

وعلى أى فقد عالج الأقدمون كتابة السير بدقة تامة ، ووضوح بارز ، واعتمدوا فى تسجيل تراجمهم على محرى الحقيقة والإسناد المتصل والمعاينة الشخصية ، فبلغوا فيها الجودة والإتقان ، والروعة والافتتان .

دكتور
السيد مرسى أبو ذكرى